

مقومات الانية الجزائرية لدى مولود قاسم نايث بلقاسم

(ب) فارس خيرة/ جامعة مستغانم

د. حموم لخضر، شعبة الفلسفة، جامعة مستغانم

مقدمة :

إن موضوع الهوية هو مؤشر للقلق العام خاصة على الشعوب المتأخرة، التي أضحت في صراع وازدحام حول إثبات هويتها، وانتمائها وسط التطورات العالمية، فلطالما كانت الثقافة وستبقى هي صانعة الهوية الإنسانية وأساس بناء الأوطان والحفاظ على تاريخهم وقاعدة تطورهم المستقبلي، وضمن هذا السياق نجد "مولود قاسم" الذي خصص معظم وقته في إثبات الإنيّة الجزائرية أثناء دراسته لتاريخنا الجزائري قبل الاستعمار الفرنسي، وحتى أثناء وبعد الإستعمار، هذه الإنيّة الجزائرية التي تعرضت إلى شتى أنواع السياسة الإستعمارية المجحفة في حق الجزائريين وهم داخل أرضهم المحتلة، أي محاولة الفسخ، والنسخ، والمسح لهذه الذات، فكان هم الشعب الجزائري في زمن الاستعمار هو التمسك والحفاظ على إرثهم الثقافي من خلال وعيهم الحاد واعتزازهم بالذات الجزائرية وبكامل مقوماتها الوطنية، بحيث أي تززع أو اختلال في أحد هذه العناصر المشكلة للإنيّة الجزائرية هو تمهيد تدريجي للمساس بثقافتنا الأصيلة النابعة من عمق وتجذر مجتمعنا الجزائري العربي الإسلامي عبر التاريخ، إذن في ضوء هذا الزخم الفكري سيتمحور جوهر الإشكالية حول: ماهي المبادئ الأساسية لقيام إنيّة جزائرية أصيلة في الفكر القاسمي؟

يعتبر "مولود قاسم" أن مقومات الإنيّة الجزائرية هي أربعة مبادئ أساسية وهي بالترتيب:

أ/ الدين الإسلامي:

يعتبر "مولود قاسم" الجزائر دولة مسلمة، منذ أيام الفتوحات الإسلامية، فقد اعتنق الشعب الجزائري (مزيج بين العرب والبربر، ونظرا لتوحدتهم، وعيشهم داخل دولة الإسلام أصبح لا يفرق بينهم) الدين الإسلامي روحا، وعقلا، وذلك لما يحتوي عليه من معاملات أخلاقية راقية سمحة، وفصائل تدعوا للسمو والتطور، ف "مولود قاسم" يرى أن الإسلام هو بمثابة « بالنسبة لنا أنفاس وجودنا، وهواء حياتنا. إن كل الثورات التي اشتعلت في الجزائر غداة الغزو كلها بلا استثناء كانت تنطق باسم الإسلام. ترفع رايته وتهتف باسمه. وتواجه الإستشهاد تحت علمه. وعندما استطاعت فرنسا أن تخدم الكفاح المسلح قامت الحركة الوطنية السياسية والإصلاحية على مختلف مراحلها في النهاية إلى استئناف الكفاح المسلح في نوفمبر 1954. وكان لابد أن يكون الكفاح الطويل باسم الإسلام هو صاحب التأثير الأوحد في كل الذين رفعوا السلاح ليعيدوا للجزائر استقلالها، وليعيدوها للعروبة والإسلام»¹

مولود قاسم، أصالية أم انفصالية؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزء 2، ط1، 1991. ، ص ص 256، 257.

أي أن الإسلام قد لعب دورا حاسما في اشعال الثورة الجزائرية، فالإسلام بالدرجة الأولى هو دعوة للحفاظ على إنيتتنا، وقيمنا، وارتباطنا بالأمة العربية الإسلامية، ومن جهة أخرى نجد الإسلام أنه قد ساعد في تظافر المجتمع الجزائري، والتوحد باسم كلمة الحق، وذلك بغية الوقوف في وجه المستدمر المدمر، وما يزيد القول توضيحا هو التأكيد الدائم، والمتكرر لـ "مولود قاسم" في كتبه على أن الجزائر رغم أنها تجمع بين الأصل الأمازيغي، وبين الأصل العربي والإفريقي، فالجزائر دولة اجتمعت، وتوحدت باسم الإسلام الذي يعد دين البشرية جمعاء، كما يذكر لنا "مولود قاسم" في مقام آخر بأن الإسلام الأصح الذي تَمَثَّلَ في حياة الأمة الجزائرية أثناء الاستعمار الفرنسي، هو الإسلام الذي يكون « بمثابة الروح الذي يقوى فيه الشخصية. ولقد كان الإسلام ذلك العامل الحاسم في كفاح شعبنا، هذا الشعب الذي حفظ له الإسلام وحدته واستمراريته منذ قرون، وما يزال يشكل ذلك العنصر الحاسم في ثقافتنا وحضارتنا. وأثناء مقاومة الاستعمار الفرنسي، وخاصة خلال المرحلة الأخيرة من تلك المقاومة، وهي حرب التحرير الوطني، كان الإسلام بمثابة الحافز للطاقت والعقليات بهدف تحريك أبناء هذه الأمة الذين يرجع الحفاظ على شخصيتهم إلى مبدأ من مبادئ الإسلام، ألا وهو الجهاد. لهذا السبب كانت الحرب التي خاضها شعبنا طيلة 132 عام تدعى الجهاد، وكان المقاتلون فيها يسمون المجاهدين، واللسان الناطق باسمهم يدعى المجاهد، ولا تزال جريدتان لنا تحمل هذ الاسم.»¹ هذا ما يجب أن نكون واعيين له أي لا نتنكر للإسلام في عصرنا الراهن، بل يجب علينا أن نكون وفيين، ومخلصين له مثلما كان أمجادنا أيام الاستعمار الفرنسي، ولم يكتفي "مولود قاسم" بهذا فقط، بل راح يدعم هذا الدين الإسلامي من خلال وقوفه في وجه التنشير المسيحي الذي يدعي فكرة التقدم والتفتح (اليساريين)، فكان همهم الوحيد هو « ابعادنا عن الإسلام، وسلخنا عن شخصيتنا وأصالتنا، حتى نظهر في أعين الصحافيين الفرنسيين التقدميين ... متفتحين صدقا، متحررين فعلا من رجعية الدين ... وبدأوا يبثون دعاياتهم وسمومهم، ومع الأسف نجحوا لدى كثير من إخواننا الذين همهم الوحيد أن تتكلم عنهم هذه الجريدة أوتلك المجلة هنا أو هناك فيما وراء البحر، المعروفة بالتقدمية، ... وهي كلها أو أغلبها بأيدي الصهيونية ... فكان أمرهم منذ الأول على الأقل أوضح، ... إنهم يفكرون في المستقبل ... وليسوا مثلنا نفكر في الغداء والعشاء فقط، في اليوم الذي نعيش فيه! هم يخططون لعشرات السنين! ... وفسح لهم المجال، إلى حد بعيد، ولعبوا أدوارا خطيرة في بث الفتنة في السنوات الأولى عندما استعادت الجزائر استقلالها ... وهدفهن: ضمان الوصاية الدائمة علينا.»²

إذن في هذا الجانب نجد "مولود قاسم" يدعو ويخص الذكر أبناء الأمة الجزائرية إلى التمسك بالحبل الوثيق، فلطالما نجد هذا الإسلام كان بالأمس بمثابة الروح الأصلية المتأصلة لدى أجدادنا الذي قادهم نحو تحقيق الحرية والحفاظ على مقوماتهم طلية الحرب الاستعمارية الفرنسية، هذا ما يعني أن الدين الإسلامي كان بمثابة شعور روحي وقوي يتغلغل في أعماق الجزائريين، فبه تم الدفاع عن شخصيتنا ضد كل الإيديولوجيات التي تهدف إلى زحزحة الكيان القومي الناجم عن المستعمر الفرنسي، ونظرا لأهمية هذا الدين الإسلامي فقد رجه

مولود قاسم، أصالية أم انفصالية؟، الجزء الثاني، نفس المصدر، ص ص 104، 105.¹
مولود قاسم، إنيتة وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، دط، 1975، ص ص 474، 475.²

"مولود قاسم" في المرتبة الأولى في تشكيلية الإنثية الجزائرية وذلك انطلاقاً من تاريخه السحيق، من عمر الدولة الإسلامية أيام النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، يوم أن أصبحت للجزائر دولتها وثقافتها، التي زين تاجها بمقوم الدين الإسلامي، والذي بفضلها صمدت إبان مختلف السياسات الإدماجية الإستعمارية الفرنسية، وواصلت شق طريقها بعد الإستقلال في بناء حضارتها عبر الزمن.

ب/ اللغة العربية:

إن ما يشهد على المرحوم "مولود قاسم" أنه كان مفكراً يزهو بوطنيته وغيته على وطنه الجزائر وبحكمته النابغة في التصرف في الوقت المناسب وقت الاستعمار، فقد تميزت ثقافته بالتمسك الشديد بمبادئ الأصالة، إضافة إلى مساره التكويني المبني على قواعد متينة التي احتذى بها إلى أن يكون « حريصاً كل الحرص على أن تستعيد اللغة العربية مركزها ومكانتها في هذه البلاد. وقد واكب المرحوم مولود قاسم حركة التعريب في الجزائر، وعانى أكثر من غيره حركة المعارضين لها. وكان ضمن المجموعة التي أعدت وجهزت لتطبيق التعريب 1971 التي أعلنت سنة للتعريب الشامل، وقد بح صوته من الخطب، وإلفات النظر في الندوات والملتقيات، وأطلع نفسه وفي عين الأماكن على العراقيل والصعوبات التي يضعها أعداء التعريب في طريقه»¹

وبما أن اللغة العربية كانت تمثل لغة القرآن ولغة الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، والتي من شأنها وُحِّدت وجمعت العرب والبربر في بوتقة أو عصارة واحدة، فـ "مولود قاسم" في هذا المقام سيعلي من قيمة وأهمية اللغة العربية، فهو يعتبرها بعد مقوم الإسلام من المبادئ الأساسية في تشكيل الإنثية الجزائرية كيف لا و «هي اللغة الأم ولسان حال الجزائريين، ثم بعدها تأتي الفرنسية وبقية اللغات الأخرى، إن اللغة العربية هي جوهر الفرد التي تحدد إنثيته وتحافظ على هويته إنها كيان الأمة»²

ولقد كان "مولود قاسم" يستحضر كثيراً الفيلسوف الألماني "فيخته" الذي يعتبر اللغة أحد العناصر المهمة في تكوين الأمة فيقول: «إن الذي يفقد اللغة يمزق الخيط الذي يصله بالأجداد، ويفقد معها حلقات ما فيه، ويشعر بفجوة عميقة في تطوره، ينقطع عن أصله، كجلمود صخر انفصل عن الصخرة الأم، وحطه السيل من عل، فجرفه وقذفه به بعيداً إلى أعماق الدوبان ... لأن اللغة الأصيلة هي الحياة، وهي التي تمت بالحياة، ولأن الأمم المغلوبة التي تفقد لغتها تندمج وتذوب في جنس اللغة الغالبة!»³ بمعنى آخر أن الشعب لما يحتل من طرف دولة أجنبية، ويتأثر هذا الشعب المغلوب بلغة الأجنبي فإنه بالحتم يفقد لغته الأصيلة والأصلية، هذا ما جعل "مولود قاسم" يرى بأن قضية الألمان وما حصل مع لغتهم الأصيلة (فقدان اللغة الألمانية واكتساب لغة أخرى أي اللاتينية)، هو نفسه ما حصل في الجزائر أيام الغزو الفرنسي، فكان همه الوحيد الإهتمام بلغتنا العربية، ورد اعتبارها في نظر الجزائريين، والفرنسيين معاً، للذين تنكروا لها واتهموها بالعقم، فهي لغة ثقافتنا الوحيدة،

يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، الجزء 1، 1995، ص285¹

رشيدة عابد، عناصر تشكيل الإنثية في خطاب الهوية عند مولود قاسم، ص127²

مولود قاسم، إنثية وأصالة، مصدر سابق، ص58³

وارثنا الوحيد لأجدادنا، لهذا قد سمي "مولود قاسم" الجزائريين الذين تنكروا للغة العربية»
بالممسوخين وقد صنفهم إلى ثلاثة أنواع:

أولاً: من يحكم على اللغة العربية بالجمود والموت، وأنها ليست لغة علمية، وهي عاجزة عن التعبير عن دقيق الصطلحات الحديثة.

ثانياً: من ينظرون نظرة شك إلى العربية ومكانتها بين اللغات العلمية الكبرى، ويكتفون بسوء معاملتها ووضعها جانبا بنوع من نظرة الشفقة على ذويها.

ثالثاً: من رسبت في أعماقهم بذور المستعمر وتأثروا بها، ويبرز ذلك في سلوكهم بدون شعور، ولا نية سيئة منهم. وهؤلاء من بين أحسن عناصرنا الوطنية، وحتى بعد أن ألغى عهد الإستقلال بصفة رسمية صبغة هذه الإصطلاحات تجدهم مستمرين في إستعمالها وغير مباليين بقيمة هذا التغير ولا مدركين لمغزاه.¹

وفي نظر "مولود قاسم" المغزى من هذه الأصناف (الممسوخين للغة العربية) أنهم قد «أصبحوا يرمونها بالعقم والجمود، وعدم المساييرة لركب الحضارة، ويتمردون على البيان العربي، وعلى مناحل الشعر العربي وعروضه وقافيته ورويه، ويلوون ألسنتهم بالسوء في ذلك كله.»²

وقد كان "مولود قاسم" لا يتردد في الرد على هؤلاء المتنكرين للغة العربية لأجل رد الاعتبار ورد الحياة للغتنا العربية الأصيلة فيقول: «ليست اللغة هي المتأخرة، وإنما المتكلمون بها، فاللغة مرآة المتكلم بها، والذنب ليس ذنب اللغة ... فعربية "ابن رشد" و "الإدريسي"، و "ابن الهيثم" ... وغيرهم لا تزال صالحة للتعبير عن نفس العلوم، مع إضافة الإصطلاحات المتجددة تبعا لحدوثها وتطور العلوم والآلات، فالعربية ليست اللاتينية. فبفضل غناها، وقدرتها على الإشتقاق، وسلاستها، وتقاليدها العلمية، ومرونتها، تعتبر من أقدم اللغات وأحدثها، وأكثرها قابلية للتطور في نفس الوقت ... ولئن كانت كل الجامعات العربية تدرس بعض العلوم باللغات الأوروبية فإن الجامعة السورية تدرس جميع العلوم بالعربية، ومع ذلك لم نسمع بعد بتدهور المستوى العلمي في البلاد ... هناك آخرون في بعض البلدان العربية - غير الجزائر- لا يكتفون بالزعم أن العربية عاجزة عن التعبير عن العلوم الحديثة، بل نجدهم يذهبون إلى أبعد من هذا، إلى حد الدعوة إلى تطوير اللهجات العامية في هذه البلاد وجعلها تتفرع عن الفصحى كالفرنسية، والإسبانية، والإيطالية ... وآخرون يدعون استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتسهيل القراءة والإستغناء عن "التنوين" ... نريد من جامعات ومدارس الدول العربية تدريس جميع المواد بالعربية، كما نريد من بعضها عدم استعمال الدارجة في التدريس!»³ وعليه نجد بأن اللغة العربية وفق رأي "مولود قاسم" هي لغة صالحة لكل زمان وذلك بفضل مرونتها، وقدرة اشتقاقها اللغوي، وبدلاً من تطوير اللهجات العامية، لابد من المحافظة على اللغة العربية والقيام بتوسيعها من خلال اشتقاق مصطلحات جديدة تتوافق مع قواعد اللغة العربية، ولهذا السبب

زهراء عاشور، الهوية اللغوية بين ساطع الحصري ومولود قاسم، ص 217، 218.¹
محمد مهداوي، أهمية اللغة في تحديد الشخصية الوطنية وتوحيد الفكر - جمعية العلماء المسلمين أنموذجاً -، ص 04.²
مولود قاسم، إتيّة وأصالة، مصدر سابق، ص ص 49، 50، 51.³

نجد "مولود قاسم" يوجه حديثه إلى البعض من المتكبرين للغة العربية فيقول: « نريد من البعض الإقلاع عن الزعم بأن العربية عاجزة عن التعبير عن العلوم الحديثة. فالعجز ليس عجز الأدمغة، وإنما عجز الأدمغة عن التفكير المستقل، وعن الإنتاج والبناء على أساس تراث الأجداد، تراث الحضارة الإسلامية بالعربية. فقد كان يضرب المثل بجودة علمهم ويقال: وكانت لغة "شغل عرب" هذه العربية، وكانت هذه اللغة تتكلمها قياصرة وعلماء أوروبا مفتخرين معتزين. العربية حية، والذي ينبغي هو تلقيح الأدمغة بالعربية الحية، عربية "الفارابي"، و "ابن سينا"، ... عربية العرب أيام كانوا عرب!..»¹

إذن في هذه الحالة نجد أن هذا الوضع كان مطبقا أيام الإستعمار الفرنسي داخل وطننا المُستعمرَ الجزائر بحيث تعلق بعض الجزائريين الغير الواعيين، والمثقفين بسياسة الإستعمار المدمرة لمقوماتنا الحضارية، فأصبح كل حب وحنين لتلك اللغة العربية مربوط بصيغة مباشرة بنكرانهم التام لهذه اللغة المتأخرة، فهي بكل بساطة لا تعبر عن الركب الحضاري بسبب عقمها وجمودها، وبالتالي كان الأمر غير هين على هذه المجموعة الممسوخة والمنسلخة عن كياننا الوطني، التي أدارت وجهها للغتنا العربية الممثلة لحضارتنا العربية بوجه العموم في احلال مكانها اللغة الأجنبية التي هي بمثابة عنوانهم للتقدم والتطور الحضاري، واستخدامها كنفوذ داخل بيئة عملهم، وعليه فالمجتمع الجزائري كان يعيش ثنائية الإنقسام اللغوي في عمق البيئة الإستعمارية آنذاك، مما يعني عدم توازن المجتمع، الذي يؤدي بنا حتما إلى الإختلال، لكي يكون في نهاية المطاف عنوانا لتخلفنا من منطلق فسخ ونسيان لغتنا العربية، التي حارب بها أجدادنا العظام من أجل البقاء والخلود طيلة السنين الماضية. والتي واصل عمل الدفاع عنها المرحوم "مولود قاسم" من خلال تطبيق مشروع التعريب في كل المؤسسات التعليمية بما فيها الجامعات والمعاهد والمرافق العامة، لأجل إنقاظ مجتمعنا من تلك التجزئة المبعثرة أيام الإستعمار، وبعد الإستعمار، وبالتالي سيكون هذا التعريب المنهجي العربي دليل على وحدتنا الوطنية في أوساط هذا العالم.

ج/ التاريخ المشترك:

إن ما يذكر عن تخصص "مولود قاسم" هو أنه كان يدرس الفلسفة في مصر لدى أستاذه "عثمان أمين"، ولكن دائما بحكم وطنيته التي لا تقارن والمشهود عليها من طرف الكُتّاب والمفكرين فقد انساق اهتمامه أيضا إلى تاريخ الأمة الجزائرية الذي كان قبلة للتشويه الاستعماري الفرنسي، ونظرا للتكوين التعليمي الذي مس وسائر شخصية "مولود قاسم" في الجامعات العربية الإسلامية كتونس ومصر فقد كان هذا كعامل تحفيزي لقراءة وإعادة النظر من جديد في تاريخنا الجزائري بغية تنقيته أو تصفيته من الشوائب والعوالق التي ألصقها الاستعمار الفرنسي عنوة عنا، لهذا السبب نجد "مولود قاسم" لا يتذمر أبدا من أداء هذا العمل المجيد، فهو يعتبره بمثابة واجب وطني يتمثل في المحاولة بكل جد وكد وإخلاص في احياء تاريخ الأمة الجزائرية العريق وبعثه في ثوبه الجديد والزاخر بالبطولات والمقاومات المجيدة باسم الإسلام، « ويعتبر ذلك جزءا من الوطنية السليمة والمتأججة لكل مواطن غيور

نفس المصدر، ص 51، 52.

على بلاده ووطنه ويقول في ذلك: "إن التاريخ هو ذاكرة الشعوب، ولا يمكن أن يغيب في أي ملتقى أوندوة، فهو ملح العلوم والفنون جميعاً".¹

وعليه نجد "مولود قاسم" كعادته يدعم قضيتنا الوطنية بالفلاسفة الألمان من منطلق أن « التاريخ ليس مثل تشريح ضفدعة وكما يقول "فيخته": "إن التاريخ كالإنجيل يكتب، ويقرأ، ويدرس بنفس التقديس والإجلال!" فالتاريخ مرآة للماضي، ومنهاج لاستخلاص التجارب، ولكن أيضاً، وبالدرجة الأولى: وسيلة لغرس حب الوطن لدى الشباب. فالتاريخ، بحفظه لكل حلقة من حلقات سلسلة الأجداد والأحفاد، يؤكد عناصر شخصيتنا الأصيلة، المتفتحة في الوقت نفسه على ضرورات العصر بما لا يضر أصالتها، ويعطي للأمة وجهها بارز السمات، واضح القسمات، ويضمن لها وجوداً متميزاً يكون عنواناً لها، وبطاقة إنيتها- أوتعريفها- بين الأمم، ككل قائم بذاته، وكجزء من كل أكبر منه ويشمله: مغربي، عربي، إسلامي، بل إنساني عالمي. فهو الأهم في كل ثقافة، والبدائية والنهاية، ليس فقط لاستخلاص الدروس، ولا حسب للتعريف بأجدادنا، ولكن أيضاً لغرس الإعتداد بالنفس في الشباب، وتعميق الوعي بالذات، وتقوية الإعتزاز بالوطن، والتشرف بالإنّيّة الوطنية، لكل أمة كاملة مجيدة، هي عنوان المجد، ألا وهي الأمة الجزائرية، العتيقة! »²

لهذا السبب نجد أن "مولود قاسم" يرى أهمية، وحاجة الدولة الجزائرية إلى إعادة كتابة تاريخها من جديد، فتقوم باحياء التراث والذاكرة والعادات والتقاليد المشتركة التي شهدت طلية تكون حضارتنا العربية الإسلامية على أهميتها في حفظ التاريخ من الزوال والاضمحلال، هذا التاريخ الجزائري العربي الإسلامي الذي تعرض أثناء الفترة الاستعمارية الفرنسية لأبغض طرق المسخ والتزييف، فهو يرى أن « من واجب الدولة إحياء المناسبات وكل الذكريات. ولقد قام هو بهذه الأدوار. كتابة التاريخ مسؤولية وطنية لماذا؟ لأن الإستعمار قد قام بكتابة تاريخ البلاد من وجهة نظره بغرض تبرير استعمارهم فعلى المثقفين والوطنيين والمسؤولين عن شؤون الدولة الوطنية، إعادة كتابة التاريخ الوطني: (فليكن هناك سابق ومنافسات إيجابية بين مختلف جهات البلاد وخاصة البلديات وقسمات الحزب في إحياء هذا التراث) فجميع المؤسسات الإيديولوجية الممتازة أسند إليها كتابة وإحياء التراث من خلال المناسبات المختلفة محلياً ووطنياً. فيقول: "إذا كانوا يحتاجون إلى تبرير استعمارهم، فمن المعقول جداً طبعاً أن يشوهوا تاريخنا، وأن يبرروا استعمارهم للبلاد. كانوا يقولون أن هذه البلاد لم يكن لها تاريخ، لم تكن لها أمجاد، لم يكن لها وجود تاريخي كدولة وكأمة وكشعب" لهذا نجد أن الإستعمار قد استغل هذه الفرصة في كتابة تاريخنا بقلمه الملطخ بالحق وكأنا أنواع السياسات التي تجعل منا في نظره وفي نظر بعض الأمم أننا لسنا أمة لها تاريخها المجيد. في هذه الحالة كانت المسؤولية أكبر وهي إعادة كتابة هذا التاريخ بشواهد التاريخية السحيقة وذلك لأجل تربية شبابنا الجيل الصاعد»³

يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الجزء 1، مرجع سابق، ص 277، 278.¹
مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، الجزء 1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع،

الجزائر، 2007، ص 27، 28.²

مولود قاسم، إنية وأصالة، مصدر سابق، ص 42-43.³

وللحديث عن التاريخ يجب الحديث عن الإسلام أولاً، الذي يجعله "مولود قاسم" جزءاً من التاريخ فيرى أن « هذا الذي نتكلم فيه من صميم الإسلام، صميم التاريخ، تاريخ الإسلام، تاريخ الكفاح في هذه البلاد، البلاد التي تعرضت للإدماج، والمسخ، والإذابة، والتمسيح، وكذلك للبداية!». فعندما يبعث في بغداد ويوجه نداء إلى هيئة الأمم والمنظمات الدولية لتشارك في إحياء بابل، فلا تهتم بغداد بالجاهلية، والعنصرية، وبابل كانت قبل الإسلام! ولكن عندما نذكر نحن "يوغرطا" نرى جهلة حمقى تغمز، وتهمز، وتلمز! وإذا كان لابد من الرجوع إلى الجاهلية، وأنتم البادئون، فهل قاوم أسلافكم أكثر من أسلافنا؟ لا وربكم، لا والتاريخ! فـ "يوغرطا" قاوم الروم! وفرنسا كانت تقول أنها "بنت روما البكر، وإن الجزائر كانت مستعمرة لروما، وجاء العرب فاحتلوها، وغزوها معتدين، وجاء الأتراك بعدهم فاحتلوها كذلك! ... وجئنا نحن أبناء فرنسا، لنعيد الأشياء إلى مواضعها، وهو استئناف إرث روما جدتنا، فنحن في وضع طبيعي!". فالكاتب الكبير، المؤرخ الروماني الشهير "سلوست" ألف كتاباً مشهوراً يدرس اليوم في كثير من معاهد أوروبا، هو حرب "يوغرطا" ضد روما! فنحن نقول أن الجزائر حتى قبل الإسلام لم ترضى بالهوان، بل قاومت المقاومة المستبعدة، التي لم تقم بها الشعوب العربية إذ ذاك في الشرق! نعم فالإسلام هو الذي خلق منهم أمة، هو الذي جعل منهم بشراً! الإسلام هو الذي جعلهم أمة بين الأمم! بين الناس! وهذا الإسلام يتكون ليس من العرب وحدهم! يتكون من الأمازيغ، ومن الفرس، ومن الترك، ومن الزنج، فـ "بلال" لم يكن عربياً، وـ "سلمان" لم يكن عربياً! فهؤلاء من الصحابة الأولين مع الرسول صلى الله عليه وسلم، كانوا رمزا لأمة الإسلام الواحدة!«¹

هذا فيما يخص الدولة الجزائرية قبل العهد الإسلامي، ولكن مع مجيء الإسلام ازدهرت الجزائر بمختلف العلوم والفنون والثقافات، ليأتي بعد ذلك حوارنا عن تأسيس دولة الجزائريين الحديثة على يد الإخوة الأربعة أو بصياغة أخرى نقول الجزائر في العهد البربروسي، بحيث نلاحظ أن الدولة العثمانية كانت في أوج قوتها، فكانت معروفة بقوة البحارة الإخوة الأربعة، الذي استنجد بهم الوفد البجائي لأجل طرد الإسبان من الجزائر، وفي هذا الصدد نجد "مولود قاسم" يصرح عن قيام الدولة الجزائرية الحديثة في قوله هذا: «إذا كانت الدولة الجزائرية تبدأ من "ماسينييسا" و"يوغرطا" دون انقطاع، حتى طيلة العصور الكبرى للأمويين والعباسيين والموحدين، حيث كانت هناك كيانات تشكل مجموعات، وحيث كان مفهوم الدولة بالمعنى الحديث لا وجود له بعد، وحيث كانت الوصاية مجرد وصاية روحية مع الدولة العثمانية، فإن الدولة الجزائرية في العصر الحديث كان لها اسمها الرسمي وهي "دولة الجزائريين" ...". من هنا يرى ضرورة استبعاد بعض المصطلحات مثل "الدولة الفتية" أو "استقلال الجزائر"، والقول باسترجاع الإستقلال أو التحرير. ففي آخر كتابه ومقدمة ومدخل "شخصية الجزائر" ما يحلله عقب كل معاهدة ورسالة واتفاقية سواء كانت حربية أو تجارية أو سياسية أو دبلوماسية، هو تأكيد لنفس الفكرة وهي فكرة استمرارية الدولة والأمة الجزائرية عبر التاريخ.»²

مولود قاسم، إنية وأصالة، مصدر سابق، ص ص 232، 234، 233.¹
زواوي بغورة، الدولة والأمة الجزائرية في فكر النخبة الجزائرية المعاصرة مولود قاسم نموذجاً، ص 45.²

وعليه نجد أن "مولود قاسم" قد ترحل عبر التاريخ الجزائري السحيق، فمن الجزائر أيام العهد القديم إلى الجزائر أيام قيام الدولة الإسلامية، إلى بعث الدولة الجزائرية في العصر الحديث « فغرضه من هذه الدراسة: "هو إحكام الصلة بين حلقات سلسلة تاريخ أمتنا الجزائرية العريقة، وإبراز مكان لها من شخصية دولية متميزة، ووجود دولي بارز، وهيبة عالمية أطبقت الأفاق". كما يتجلى الهدف خاصة في التركيز على العهد العثماني الذي كان موضوع نقاش رفض وإثبات، لذا ركز عليه ووصفه بقوله: "أنه من أزهر وأزهى عصورنا، ومن أمجد فترات تاريخنا العريق، وإزالة للغشاوة عن أذهاننا .. وعيون النشئ الطالع والأجيال .. ولو بمجرد الذكر للعهود السابقة من تاريخ أمتنا الأثيلة الأصيلة .."، أنه حضور دائم للأمة والدولة. وكانت طريقته أو منهجه في هذه الدراسة وكما وصفها بقوله: "فقد حرصت على إيراد كل ما وجدته من صالح لنا، إيجابي في تاريخنا، مما أوردوه هم بالذات".¹

وعلى إثر هذا السياق الزمني الذي أورده "مولود قاسم" عبر العودة لتاريخنا السحيق الذي يمثل تاريخنا الشامل والشامخ بكل فخر واعتزاز عبر الأزمنة الغابرة، تاريخ أمتنا المجيدة والعريقة وطننا "الجزائر" الذي ظل الإستعمار الفرنسي يلطخه بقلمه المزيف، والشائك بالمغالطات والأكاذيب الجمة في حقنا كأمة، وكشعب يريد أن يستعيد تاريخه ويكتبه بيده، وحتى يبقى سار في عروق أبنائه، فتاريخنا هذا الذي كتب بدماء الشهداء هو بمثابة إرثنا المجيد الذي نحكيه لأبنائنا الصغار، وإرثنا الذي ندرسه لأبنائنا في المدارس ونحن في قمة الإفتخار به، وبمجمال القول سيظل تاريخنا هو ثقافتنا، وثقافتنا هي تاريخنا التي نحياها ونحتفل بها في العديد من المناسبات الوطنية، وستظل الذاكرة الجزائرية تحتفظ بثقافتنا أي تاريخنا العتيق والعريق والعظيم والعزير علينا مثل حنين الأم لإبنها.

وفي إطار حديثنا السابق عن التاريخ الجزائري بما فيه الماضي السحيق عبر الأجيال الغابرة (العصر القديم وعصر الإسلام أي الفتوحات الإسلامية)، مروراً إلى التأسيس الحديث للدولة الجزائرية بزعامة الإخوة الأربعة، وكيف صارت دولة الجزائريين دولة مستقلة لها سيادتها الخاصة، وسيطرتها التامة على حدودها الإقليمية، فالآن وجهة حديثنا تتغير صوب الوجهة الثانية للبوابة الكبرى وأقصد هنا بالضبط تاريخ الجزائر عبر البحرية الجزائرية التي تعرضت أيضاً للتشويه والتزييف من خلال التسمية المزعومة بـ "القرصنة" التي قامت به البحرية الجزائرية في ذلك الوقت سوى ما يسمى بالدفاع عن النفس من جراء القرصنة الإسبانية خاصة والأوروبية عامة، هذه القرصنة الجزائرية التي بدأت من البحر المتوسط تزدهر شيئاً فشيئاً، وهذا عكس تماماً ما كان يقال عن هذه البحرية الجزائرية من تزوير داخل طيات الزمن بل إنها بحق « البحرية، التي يجمع عليها المؤرخون الأوروبيين والأمريكان على أنها كانت منظمة أحسن تنظيم، زيادة على شجاعة أهلها. وكانت الجزائر استعملت تفوقها البحري بدافع الوعي بمسؤوليتها الدولية عن الأمن والسلم في البحر الذي كان بحرهما، بل وفي البحار، من البرتغال حتى إسlanda، كانت تصارع الدول الكبرى، وتفرض عليها معاهدات السلم، وضرائب باهضة. ونظراً لشواطئنا الطويلة، ونظراً لواقع البحر الأبيض المتوسط وجميع البحار، التي كانت تغص بسفن القراصنة من جميع الجنسيات، نظراً لكل

نفس المرجع، ص 46.¹

هذا فقد كانت بحريتنا منذ البدء، في المستوى، وكان أسطولنا يليق بالمقام، للرد والدفاع، وقد كتب بعض المؤرخون الأوروبيين عن البحرية الجزائرية، وهي تغني عن كل شرح وتعليق من بينهم:

يقول المؤرخ الفرنسي "دوغرامون": "لقد أخذت جرأة الرياس الجزائريين (قائد البحرية) تتطور وتزداد باطراد. وهكذا حجزوا على عباب المحيط الأطلس السفن الإسبانية، المسلحة تسليحا ثقيلا والمحملة بالذهب والفضة والبضائع الفاخرة، وهي راجعة من أمريكا اللاتينية، كما فاجأوا أكثر من مرة سكان شواطئ خليج غسكونيا، ...، وبحار انجلترا. فمن ضفاف مادييرا على الأطلسي إلى صخور الجليد في إسيلاندا ما كان أحد يستطيع أن ينجو من ملاحقاتهم". ونظرا للهيبة العالمية التي كانت تتمتع بها الدولة الجزائرية أمام الدول العالمية الكبرى فقد « توصل "مولود قاسم" من تلك المراسلات والمعاهدات والإتفاقيات إلى أن "الجزائر لم تكن فقط دولة، ولم تكن فحسب دولة عظمى بين الدول العظمى، بل كانت في قمة الدول العظمى. وهذا ما أردنا بيانه وتأكيد به هذه المحاولة".¹

وهذا دليل على ما يستشهد به المفكرون عن المفكر الجزائري "مولود قاسم" الذي يظل يردد كلامه الممدوح في كل مرة، ولا نجده يمل من ذلك أبدا في تأكيد وجودنا كأمة عبر التاريخ الجزائري، الحافل بالمقاومات المستبصلة، فهو يعتبر ويقر بقوله أن « وجود الدولة الجزائرية لم ينته بسقوط هذه "الدولة العظيمة" فإن في نظر "مولود قاسم" أن استمرار الدولة ينعكس في سلسلة المقاومات التي بدأت بثورة "الأمير عبد القادر" التي هي دليل على وجود الدولة كانت شاملة البلاد من الحدود إلى الحدود عكس ما كان يقوله المستعمر عن محلية هذه المقاومة. كما يرفض "مولود قاسم" قول المستعمر الذي يقول بأن زعماء الثورة ثاروا علينا لأجل مصالحهم فقط وخوفا من تهديد الاستعمار لمناصبهم فهذه دعاية استعمارية ويقول "مولود" عنهم لقد ثاروا لأجل الدفاع عن وطنهم». ²

وعلى إثر هذا الدفاع الذي قاده زعماء الثورة عن وطننا الأم الجزائر فقد نتج عنها كما ذكرت سابقا الثورات الجزائرية التي يقول عنها "مولود قاسم" « إذا كانت هذه الثورات شاملة ووطنية فإنها مستمرة لم تعرف الإنقطاع أنها "السلسلة المحكمة الحلقات التي تبتدئ من 1830 وتستمر حتى 1916" وهذا البناء على تقرير الأكاديمية الاستعمارية الفرنسية، ويضيف إليها "مولود قاسم" الثورات الروحية مثل ثورة "ابن باديس" التي نظمها (في جميع أنحاء البلاد) وحزب الشعب، والتي استمرت حتى ثورة 1954، ولم يكتفي "مولود قاسم" بأحكام السلسلة في العصر الحديث، بل ينتهي بعيدا في الأحكام والربط، لأن المقاومة عنده لم تبدأ مع الإستعمار الفرنسي بل كانت الجزائر وعبر تاريخها الطويل أمة المقاومة، فيقول: "فنحن نقول أن الجزائر حتى قبل الإسلام لم ترضى بالهوان بل قاومت المقاومة المستبصلة، التي لم تقم بها الشعوب العربية إذ ذاك في الشرق".³

نفس المرجع، ص 32.¹

نفس المرجع، ص ص 49، 50.²

نفس المرجع، ص 50.³

وعلى أساس هذه الثورات الشعبية المنظمة، والمنسقة من قبل زعماء ثورتنا الجزائرية المجيدة، فقد دُون تاريخنا العريق والذي ظل **مولود قاسم** يعمل على تبريره من خلال « استخدام المصادر الفرنسية خاصة كسند يتخذ صبغة وصفة الدليل فيقول: "لأنه إذا كان هنالك من المصادر الفرنسية ما كان أغلبها مزورا، ومحرفا للتاريخ، فهناك بعض المصادر القليلة التي أثبتت الحقيقة، ربما لا إخلاصا للحقيقة ولا نزاهة علمية منها، ولكن نظرا للخصومات بين الأحزاب السياسية إذ ذاك، بين الإتجاهات المختلفة في فرنسا إذ ذاك، ولهذا اضطر بعض المؤرخين الفرنسيين، ليفضح بعضهم بعضا، إلى قول الحقيقة عن الجزائر.»¹

إذن ما يود القصد به **"مولود قاسم"** من خلال هذا الإطار عن قادة ثورتنا العريقة عبر الزمن، هو إبراز ذلك التنظيم الشامل عبر كافة الوطن وحدوده، وهو بحد ذاته قول للحقيقة المخبأة من طرف المستعمر الفرنسي، والتي تعرضت للكثير من التزوير، والتحريف عن أصلها الحقيقي المدسوس بين بعض المصادر الفرنسية، والتي أثبتت لنا بأننا أمة جزائرية شامخة لن ترضى « الإحتلال من أي كان، نحن أنصار الوحدة الإسلامية بمعنى الكلمة، في عصر التجمعات، ... مع الفوارق المتعددة في الدين، وفي الدين، وفي اللغة، وفي الثقافة، ونحن الذين لا يفرق بيننا أي شيء، وجمعنا كل شيء! فالوحدة الإسلامية هي الطريق الوحيد، طريق الخلاص في جميع المجالات.»²

وبعد هذا التوضيح الذي عمد إليه **"مولود قاسم"** لأجل تصحيح التاريخ الجزائري عبر العودة لكامل مستندات الثورة الجزائرية، والتي كان بعضها مصادر فرنسية التي ساهمت في الكشف عن حقيقتنا كأمة جزائرية متمسكة بوحدتها الإسلامية وأصالتها العريقة عبر الأجيال، فهو يرجع ثانية **"مولود قاسم"** إلى تصحيح تاريخ البحرية الجزائرية وعلاقاتها المجاورة بين دول العالم التي تميزت بوجود « علاقات وطيدة جدا بين الجزائر وبروسيا مثلا، وبعض الدول الألمانية المختلفة، وكانت دويلات قبل أن يوحدتها **"بيسمارك"**. وكانت بعضها تدفع اتاوة للجزائر، لتحمي لها سفنها في البحر الأبيض المتوسط.»³

إذن ضمن هذا السياق المعرفي يتضح لنا مدى قوة الدولة الجزائرية من ناحية علاقتها الداخلية مع الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية مع الدول الأوروبية التي كانت تفرض عليها الضرائب مقابل حماية سفنها داخل البحر الأبيض المتوسط، علاوة على ذلك نجد أيضا قوة أسطولها البحري المتبوع بالسفن المستديرة التي تمتاز بسرعة الظهور والإختفاء في نفس الوقت، وهذا ماساعدها على رد الهجمات المتواصلة من قبل الحملات التي شنتها الدول الأوروبية الصليبية والأمريكية على الجزائر آنذاك وهذا كله بمثابة هم شاق يحمله أي مفكر جزائري يحب ويغار على وطنه ويريد رد الاعتبار لهذا الوطن المقدس، فـ **"مولود قاسم"** قد تولى هذا الأمر بنفسه من خلال إثباته للدول الأخرى أن الجزائر هي « الأمة المجيدة التي لا تقل عراقا ولا تاريخية ولا أصالة ولا أثالة ولا أقدمية عن أية أمة تاريخية عريقة أصيلة أثيلة، قديمة والقدم لله" وكما يقول أيضا: "إن شخصية الجزائر الدولية ووجودها المتميز البارز وعراقا تلك الشخصية وتاريخية الوجود وهيبته التي توحى بالرهبة والوقار

نفس المرجع، ص 152.

مولود قاسم، إنّيّة وأصالة، مصدر سابق، ص 238.

نفس المصدر، ص 293.

كل ذلك تشهد به وثائق وكتابات الغير والفضل مايشهد به الغير حتى بل وخاصة إذا كانوا من الأعداء والخصوم.¹

وعليه فما يمكن استنتاجه من أقوال "مولود قاسم" هو تبريره الدائم للأحداث التاريخية التي حدثت للجزائر قبل، وأثناء الإستعمار من الواقع التاريخي الجزائري عينه، ومن المصادر الأخرى حتى ولو كانت من طرف العدو المستعمر، فالمهم هو استظهار الحقيقة المغيية، وتصحيحها من الشوائب وها هو "مولود قاسم" بدوره أيضا يصف لنا الجزائر في عهد الدايات « بكل أوصاف الإكبار والتبجيل والتعظيم فيقول: "فلقد كانت الدولة الجزائرية في عهد الدايات، خاصة دولة قمقمة - يقصد عظيمة- فلم تكن فقط عضوا في مجلس الكبار، ولا فحسب بين الكبار، بل كانت على رأس الأكابر، وكان عهدها من أزهى حلقات السلسلة الطويلة لتاريخينا العريق، عهد عزة ومجد وجهد وجهاد وشخصية دولية ووجود متميز بارز وهيبة عالمية ومساعدة للضعيف وهيمنة على قوى الشر في غرب ذلك الوقت وشرقه وشماله وجنوبه" فيصفها: "هنالك من بين أمم الدنيا أمة عريقة ظلت مدة قرون ثلاثة متوالية سيدة البحر الأبيض المتوسط".²

واستنادا إلى كل هذه الدفاعات التي قدمها "مولود قاسم" في حق القضية الجزائرية كل هذا العمل الجليل فقط لأجل بلاده الجزائر، ومحاولة ارجاع هيبته ومكانتها عبر باقي دول العالم. فلم يفتأ برهة واحدة في التعظيم بالأمة الجزائرية، وذلك من خلال تقديمها للمساعدات المادية والمعنوية حتى في مجال « الإنتاج فقد أعطت الجزائر لفرنسا قرضا ماليا 1793 مساعدة للثورة الفرنسية، ثم بعد ذلك أعطتها قرضا آخر يتمثل في القمح، وبعد أن طالب "الداي حسين" بشدة هذه الديون، تنكروا، واليوم يقولون أن الجزائر كانت مستنقعات.³

وعليه فما يمكن ملاحظته على هذه الإستعدادات الأولية التي قدمتها الجزائر للكثير من الدول وخاصة فرنسا أثناء أزمتها إنما دليل على ماكانت تزخر به الجزائر « فالجزائر بلد زراعي، هذه حقيقة قديمة، لاتحتاج إلى تدعيم، ولكن الجديد في الأمر هو أن مؤرخي الإستعمار يدعون بأن المعمرين الفرنسيين هم الذين استصلحوا، وصيروا تربيتها طيبة. إن هؤلاء المؤرخين يتناسون ما ورد في تقرير السيد "تادنة" الذي قدمه للسلطات الإمبراطورية الفرنسية في أيام عزها، والذي جاء فيها: "إن مناخ الجزائر جميل وأرضها طيبة، توجد بها مزارع شاسعة، وسهول فسيحة: تكثر فيها منتوجات أمريكا والهند، بالإضافة إلى ما ينبت في أراضي أوروبا، كما أنها تنتج كميات هائلة من القمح والشعير والصوف والجلود والشموع. أما مراعيها فتزخر بأنواع الحيوانات المختلفة مثل الأبقار والأغنام والماعز والبغال والحمير الممتازة" إضافة إلى ما أورده السيد "شالر" في كتابه "لمحة تاريخية عن الدولة الجزائرية" إذ يؤكد بأن سهول متيجة تعتبر من أحسن الأراضي وأوسعها في العالم، وذلك نظرا لمناخها وخصوبتها وموقعها، وهي تمتد على مساحة قدرها تقريبا 330 ميلا مربع. وكانت معظم الأراضي في الجزائر، قبل الإحتلال الفرنسي، ملكا مشاعا للأعراش التي

زواوي بغورة، الدولة والأمة الجزائرية في فكر النخبة الجزائرية المعاصرة مولود قاسم نموذجا، مرجع سابق، ص ص 47، 48.¹

نفس المرجع، ص 47.²

مولود قاسم، إنية وأصالة، مصدر سابق، ص 522.³

كانت تستثمرها جماعيا لتحقيق الإكتفاء الذاتي وتصدير الفائض من الإنتاج إلى المشرق وأفريقيا السمراء وإلى بلاد جنوب أوروبا على وجه الخصوص. ثم جاءت قرارات القادة العسكريين الفرنسيين ومراسيم السلطات الإستعمارية فأباحن اغتصاب تلك الأراضي بسبب مشاركة أصحابها في الإنتفاضات الشعبية المختلفة وتسليمها بالمجان إلى المعمرين الأوروبيين. وبفعل هذا الإغتصاب للأراضي الزراعية، تحول الفلاحون الجزائريون إلى مجرد أناس عاطلين عن العمل يعيشون من التسول أو من النباتات التي توجد بها الطبيعة بعدما كانوا قبل الإحتلال يمثلون أغلبية السكان الساحقة. - وما كاد يحل الإحتفال بمرور قرن على الإحتلال حتى فقدت الجزائر قدرتها على تحقيق الإكتفاء الذاتي وتحولت من منتج حبوب ومصدر لها إلى بلد مضطر لإستيراد المواد الغذائية لحاجات سكانه.¹

واعتبارا لهذه المعطيات الصادرة عن التاريخ الجزائري التي كانت محلا للتشويه والتحريف والتزييف من طرف المستعمر، فكلها كانت مخططات مدروسة ومفصول فيها، منذ نزول القوات الفرنسية بأرضنا المحتلة فكان من بداية الأمر وجوب معرفة أنه « بعد قرن من يوم الإحتلال تبين أن الجيش الفرنسي لم ينزل بأرضنا لإحتلال مؤقت ولا لمجرد الضم بالمعنى التقليدي للكلمتين، لأن الإستعمار أدخل في التاريخ وجهة ثالثة، هي الإستعمار ذاته. إن نزول الجيش الفرنسي برأس سيدي فرج 1830. أعلن حالة الحرب التي دشنت (الحضور الفرنسي) بالجزائر.²

ووفقا لهذا المسار التاريخي الذي تختزنه كتبنا، ومصادر غيرنا عن ماضي تاريخنا العريق، والسحيق لأمتنا الجزائر، التي تركت لنا ولأجيالنا الصاعدة إرثا ثقيلا، يعج بما صنعه زعماء الحضارة أيام "يوغرطة" و"ماسينيسا"، وأيام الجزائر في العهد الإسلامي (الدولة الحمادية، الفاطمية، الزييرية، الزيانية، العباسية...) التي اتسعت بنور الإسلام، وفتحت آفاقا لتصير الجزائر بذلك ضمن الدول العربية يجمعها، ويوحدها الإسلام تحت راية واحدة، لتنتقل بعد ذلك الجزائر إلى أيام الدولة العثمانية التي استعانت بالوفد وأقصد هنا الإخوة الأربعة ومساهماتهم في تأسيس الجزائر وجعلها دولة لها حدودها وسيادتها الوطنية، ولها تعاملاتها الداخلية والخارجية، وصولا بذلك إلى الإحتلال الفرنسي للجزائر الذي حاول تطبيق كل السياسات الاستعمارية على الشعب الجزائري لأجل فسخ، وتذويب، وإدماج هذه الإنية الجزائرية داخل نطاق الهوية الفرنسية، شرط أن يكون الشعب الجزائري شعبا مهما، فقيرا، جاهلا لمعالم قيام الحضارة، مريضاً، مضيقاً لكيانه القومي، ولتاريخه العريق عبر الزمن، فلطالما فرنسا أرادت أن تجعل من الجزائر بلدا له شعب لا يحمل هويته الخاصة به، بلدا ليس له تاريخ، حتى وإن كان، فهي كانت دائما تسعى لتشويه وتزييف هذا التاريخ الحافل بالبطولات المستشهد بها حتى في المصادر الفرنسية، لهذا السبب بالضبط دائما ما نجد "مولود قاسم" يُحي ضمير المفكرين الجزائريين الذين يحملون نزعة وطنية، وغيره في حب وطنهم الجزائر، إلى إعادة كتابة هذا التاريخ الجزائري، وتنقيته من الشوائب، وجعله تاريخ مبني على مبدأ الصدق، والإيمان به تحت أي نوع من الظروف، وذلك بغية المحافظة

محمد العربي الزييري، تاريخ الجزائر المعاصر، مكتبة الأسد الوطنية- اتحاد كتاب العرب، الجزء 1، دط، 1999، ص 103، 104.¹

مالك بن نبي، مشكلات الحضارة في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، 4ط، 1991، ص 39، 40.²

عليه، فالحفاظ على تاريخنا الجزائري هو حفاظ في الوقت نفسه على إنيتنا، و أصلتنا، وثقافتنا بين الأمم، وهو رصد لتطلعا نحو ثقافة الآخر مقابل ثقافتنا الجزائرية العربية الإسلامية، التي تُعرف عنا بدليل اكتسابنا النقي، والدقيق للمقومات الشخصية الجزائرية المتماسكة مع بعضها البعض.

د/ الوطن الجزائري:

بعدما تحدثنا عن أهمية الدين الإسلامي، واللغة العربية، والتاريخ في تشكيل الإنّيّة الجزائرية لدى المفكر الجزائري "مولود قاسم" فالآن بقي مقوم رابع وأخير الذي يعد كعامل في تكوين، واستكمال لهويتنا المقدسة ألا وهو الوطن الجزائري ومدى حبنا لهذا الوطن. فالوطن في المفهوم القاسمي هو بمثابة « الأبعاد الحقيقية للإنّيّة، إذ نجد الوطن حاضر في كل مداخلاته ومن دون استثناء، فهو جاري في لسانه وفكره وتفكيره، إن الوطن عنده أساس كل عمل، وكل بناء، بل إنه يمثل الإنّيّة والأصالة بكل خصوصيتهما، فهو ليس الأرض فقط، بل هو الزمان هو الإستقلال هو السيادة، هو الحرية بهذه الخصائص المثالية يتحقق النمو والإزدهار، والوجود والمكانة بين الأمم في العالم البشري. فحين يتحدث "مولود قاسم" عن الوطن فهو يتحدث عن حياة، عن وجود، عن تاريخ، أو زمان ومكان، عن حرية أخذت بدم الشهداء. وقد ندرك حبه لهذا الوطن في أكثر من موقف. كيف لا يكون الوطن الذي يمثل الكل في الإنّيّة الجزائرية فهو الذي يمثل أجزاءها، فحياته كلها نضال ودفاع عن الوطن والإستقلال الوطني وأنه حين يتاح الحديث عن الجزائر فإنه يصفها كأنها العروس المزين بأحلى الثياب والحلل المعطرة بشتى أنواع العطر.»¹

وليزيد "مولود قاسم" تأكيدا على عامل الوطنية فقد كان يستعين دائما كما سبق ذكرنا عنه في المقومات المؤسسة للإنّيّة الجزائرية بالمفكر الألماني "فيخته" فيقول عن حب الوطن: « "فكما أن الدين هو العنصر الدائم لحياتنا الروحية العليا، كحياة روحية بمعنى الكلمة، فإن حب الوطن هو العنصر الدائم والأساسي لحياتنا المدنية كمواطنين". ثم يتساءل "فيخته": من هو الوطني؟ ويجيب: "إن الوطني هو الذي يعمل على تحقيق هدف الإنسانية قبل كل شيء في أمته التي هو عضو منها. إن الوطن خالد، هذا الوطن الأرضي الحسي الذي نحن فيه، وإن الذي لا يحب وطنه ليس له وطن، وإنني. لأرثي كل الرثاء لمن لا وطن له!"»²

وعليه فحسب أقوال "فيخته" و "مولود" عن حب الوطن فهو يعد من دعائم هويتنا، فمن حبنا الصادق والخالد لوطننا، وإرادتنا القوية، قد توصل الشعب الجزائري لطعم الحرية، وجعله خالدا عبر التاريخ وعبرة لمن يعتبر.

خاتمة:

¹ عليش لعموري، المقومات الأساسية في بناء الإنّيّة عند مولود قاسم (1927، 1992)، ص 391.
مولود قاسم، أصالية أم انفصالية؟، الجزء الأول، مصدر سابق، ص 69.

وفقا لهذا البناء الممنهج الذي أقامه لنا المفكر الجزائري "مولود قاسم" حول موضوع الإنّيّة الجزائرية، يتجلى لنا أن هذه المقومات الأربعة لا يمكن لها أن تؤسس لهوية جزائرية إلا من خلال تماسكها ببعضها البعض، والعكس صحيح، فبهذا "الدين الإسلامي" الذي يمثل الدعامة الأولى للثقافة الجزائرية، وفي تماسك الوحدة العربية، والقاعدة الأساسية في صقل هذه الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية على محبة هذا الإسلام، والدفاع عنه من كل أنواع السياسات التي ترضى له السقوط، والإضمحلال في ظل تطورات العصر، ووفقا لهذا التدرج المرتب لمقومات الإنّيّة الجزائرية، يتبين لنا أن اكتمال، وتماسك هذه المقومات الأربعة يكون كتأسيس فعلي للإنّيّة الجزائرية داخل مضمار التأصيل الثقافي لدى "مولود قاسم".

إن تمسك الذات الجزائرية بمبادئها الأصيلة أمكنها من الوصول إلى بلوغ حريتها التي يشهد عليها التاريخ العربي الإسلامي، فـ "مولود قاسم" عندما يتحدث عن هذه الإنّيّة الجزائرية فهو يتحدث بالدرجة الأولى عن المبادئ أو المقومات التي تبني لنا السياق الصحيح والسليم لهذه الإنّيّة، فمنذ عهد الإسلام اكتست هذه الذات بقواعدها المتينة والمتراصة في بعضها البعض، بحيث أي خلل مشبوه في هذه المعايير الثقافية فهو مساس بنقص الوعي في أصالة هذه الذات الجزائرية، ونقص بحد ذاته في أخذ الحرية واسترجاعها، فكلما تمسكنا بأوعيتنا الثقافية، كلما كان هناك تأسيس فعلي لدرجة الوعي الذي يطرد عنا هذا الاستعمار الدخيل والغريب عنا في مبادئنا وقيمنا الأخلاقية.

- قائمة المصادر والمراجع:

أ/ قائمة المصادر:

- 1- مولود قاسم، أصالية أم انفصالية؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزء 1، ط1، 1991.
- 2- مولود قاسم، أصالية أم انفصالية؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزء 2، ط1، 1991.
- 3- مولود قاسم، إنّيّة وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، دط، 1975.
- 4- مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، الجزء 1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

ب/ قائمة المراجع:

- 1- محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، مكتبة الأسد الوطنية- اتحاد كتاب العرب، الجزء 1، دط، 1999، ص ص 103، 104.
- 2- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة في مهبط المعركة، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط4، 1991.
- 3- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الجزء 1، ط1، 1995.

ج/ قائمة المقالات:

- 1- رشيدة عابد، عناصر تشكيل الإنية في خطاب الهوية عند مولود قاسم.
- 2- زهراء عاشور، الهوية اللغوية بين ساطع الحصري ومولود قاسم.
- 3- عليش لعموري، المقومات الأساسية في بناء الإنية عند مولود قاسم (1927، 1992) (1)،
2، 3، كلها من كتاب سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، من
إشراف الأستاذ عبد المجيد العمراني، منشورات مخبر حوار الحضارات والعولمة 2010،
طبع مؤسسة سرار للطباعة الصناعية، باتنة، دط، 2011).
- 4- محمد مهداوي، أهمية اللغة في تحديد الشخصية الوطنية وتوحيد الفكر - جمعية العلماء
المسلمين أنموذجاً
- 5- زواوي بغورة، الدولة والأمة الجزائرية في فكر النخبة الجزائرية المعاصرة مولود قاسم
نموذجاً.